الباب الثالث عشر

أوصاف الربوبية وأوصاف العبودية

فإذا أردت أن يظهر جوده عليك وتبسط مواهبه لديك ، فتحقق بوصفك وتعلق بوصفه ، كما أبان ذلك بقوله رضى الله عنه :

[**كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً ، وبأوصاف عبوديتك متحققًا**].

قلت : أوصاف الربوبية هى العز والكبرياء والعظمة والغنى والقدرة والعلم وغير ذلك من أوصاف الكمالات التى لا نهاية لها ، وأصاف العبودية هى الذل والفقر والعجز والضعف والجهل وغير ذلك مما يناسب العبودية من النقائص .

وكيفية التعلق بأوصاف الحق : هو أن تلتجئ فى أمورك إليه ، وتعتمد فى حوائجك عليه ، وترفض كل ما سواه ، ولا ترى فى الوجود إلا إياه . فإذا نظرت إلى عزه وكبريائه وعظمته تعززت به ولم تعزز بغيره ، وصغر فى عينك دونه كل شىء . وإذا نظرت إلى وصفه تعالى بالغنى تعلقت بغناه ، واستغنيت عما سواه ، ولم تفتقر إلى شىء ، واستغنيت به عن كل شىء . وإذا نظرت إلى وصفه تعالى بالقدرة والقوة لم تلتجئ فى حال عجزك وضعفك إلا إلى قدرته وقوته ، واستضعفت كل شىء . وإذا نظرت إلى سعة علمه وإحاطته اكتفيت بعلمه ، واستغنيت عن طلبه ، وقلت بلسان الحال :

« عِلْمُهُ بحَالِي يُغْنِي عَنْ سُؤَالِي » .

وهكذا فى جميع الأوصاف والأسماء ، فكلها تصلح للتعلق والتخلق والتحقق .

وكيفية التخلق بأوصافه تعالى : أن تكون فى باطنك عزيزاً ، قويًّا به عظيماً كبيراً عنده ، قويًّا فى دينه وفى معرفته عالماً به وبأحكامه ، وهكذا .

وحاصلها : استعمال الحرية فى الباطن والعبودية فى الظاهر .

وكيفية التحقق بأسماء الله تعالى : أن تكون تلك المعانى فيك راسخة متمكنة

متحققاً فيك وجودها ، فالتخلق مجاهدة ، والتحقق مشاهدة : أى يكون وجودها غريزيًّا .

وكيفية التخلق بأوصاف العبودية : هو التحقق بالذل فى الظاهر ، حتى يصير الذل عندك حرفة وطبيعة لا تأنف منه ، بل تستحليه وتغتبط به ، وكذلك الفقر والضعف والجهل ، وسائر أوصاف العبودية تتحقق بوجودها فى ظاهرك حتى يكون ذلك شرفًا عندك .

وكان شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه يقول : أهل الظاهر يتنافسون فى العلو أيهم يكون أعلى من الآخر ، وأهل الباطن يتنافسون فى الحنو أيهم يكون أحنى من الآخر ا هـ بالمعنى .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : أوصاف الربوبية أربعة ، تقابلها أربعة هى أوصاف العبودية : أولها الغنى ، ويقابله الفقر . الثانى العز ، ويقابله الذل . الثالث القدرة ، ويقابلها العجز . الرابع القوة ، ويقابلها الضعف ، وكل هذه متلازمة ، إن وجد واحدها وجد جميعها ، ووجود المقابل ملزوم بوجود مقابله .

فمن استغنى بالله افتقر إليه ، ومن افتقر إلى الله استغنى به ، ومن تعزز بالله ذل له ، ومن ذل له تعزز به ، ومن شاهد قدرته رأى عجز نفسه ، ومن رأى عجز نفسه شاهد قدرة مولاه ، ومن نظر ضعف نفسه رأى قوة مولاه ، ومن رأى قوته علم ضعف نفسه ، لكن إن كان البساط النظر لأوصافك فأنت الفقير إلى الله ، وإن كان البساط النظر إلى أوصافه فأنت الغنى بالله . وهما يتعاقبان على العارف ، فتارة يغلب عليه الغنى بالله ، فتظهر عليه آثار العناية ، وتارة يظهر عليه آثار الفقر إلى الله فيلتزم الرعاية ، فحين غلب الغنى بالله على حبيب الله أطعم ألفاً من صاع ، وحين غلب عليه الفقر إلى الله شد الحجر على بطنه من الجوع فافهم ا هـ .

قلت : والتحقيق ما قدمناه من أن التعلق بأوصاف الربوبية يكون فى الباطن ، والتحقق بأوصاف العبودية يكون فى الظاهر ؛ فالحرية فى الباطن على الدوام ، والعبودية فى الظاهر على الدوام ؛ فحرية الباطن هى شهود أوصاف الربوبية ، وهو معنى التعلق بها ، لكن إن كان مجاهدة فهو تعلق ، وإن كان

طبيعة وغريزة فهو تحقق .

أو تقول : إن كان حالا فهو تعلق وإن كان مقاماً فهو تحقق ، وعبودية الظاهر هى شهود أوصاف العبودية قيامًا بالحكمة وسترًا للقدرة .

والحاصل : أن عظمة الربوبية ظهرت فى مظاهر العبودية ، فمن نظر للعظمة صرفاً تحقق بعظمة الربوبية ، ومن نظر لظاهر المظهر تحقق بأوصاف العبودية ، والكامل ينظر لهما معًا ، فيتحقق بعظمة الربوبية فى الباطن ، ويتحقق بأوصاف العبودية فى الظاهر فيعطى كل ذى حق حقه ، فالجميع فى باطنه مشهود ، والفرق فى ظاهره موجود ، والله تعالى أعلم .

فإن أظهر أوصاف الربوبية فقد تعدى طوره ، وجهل قدره ، فلابد أن تؤدبه القدرة ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[منعك أن تدعى ما ليس لك مما هو للمخلوقين ، أفيبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين] .

قلت : الحق تعالى غيور فلا يحب لعبده أن يفشى سر خصوصيته ، ولا يرضى لعبده أن يشاركه فى أوصاف ربوبيته ؛ فمن غيرته تعالى أن ستر سرّ الخصوصية بظهور وصف البشرية ، ولولا ذلك لكان سر الربوبية مبتذلا ظاهرًا وذلك مناقض لحكمته ، وكيف وهو يقول : (إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)[1] .

ومن غيرته تعالى أن اختص بأوصاف الربوبية ، ونهانا عن إظهارها والتحلى بها حالا أو مقالا ، وذلك كاتصاف العبد بالعز والعظمة والكبر ، وطلب الرياسة والعلو ، أو ادعاء ذلك بالمقال . فإن فعل شيئاً من ذلك استحق من الله الطرد والنكال ، ففى الحديث القدسى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : الكِبْرِيَاءُ رِدَائى ، وَالعَظَمَةُ إِزَارِى ، فَمَنْ نَازَعَنى وَاحِدًا مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ » .

وقال أيضًا صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الأنعام : ٨٣ .

« لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ فَلِذٰلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » .

وفى البخارى فى قصة سيدنا موسى عليه السلام :

« أَنَّهُ خَطَبَ عَلَى النَّاسِ خُطْبَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ ، فَقَالَ لَهُ : هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ ؟ فقَالَ : لَا ، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذ لَمْ يَرُدَّ العِلمَ إِلَيْهِ ، فقَالَ لَهُ : بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ ، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا مَا قَصَّ اللهُ فى كِتَابِهِ » .

فانظر كيف أدبه بطلب غيره ، حتى صار تلميذاً له يأمره وينهاه بقوة وصوله مع عظم قدره وجلالة منصبه ، وما ذلك إلا لإظهار شىء من الحرية ، فكل من أظهر الحرية رده إلى العبودية بالقهرية ، وكل من أظهر العبودية حقق له فى باطنه الحرية وملكه الكون بالكلية ، فمن تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره ، ومن غيرته تعالى أيضًا أن حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والفواحش : كل ما فحش قبحه وعظم جرمه : كالزنى والغصب والسرقة ، والتعدى ، وأكل أموال اليتامى ، وغير ذلك من حقوق العباد . فإذا كان منعك أن تدعى ما ليس لك مما هو للمخلوقين من العرض الفانى ، فكيف يبيح لك أن تدعى وصفه من العزة والكبرياء وهو رب العالمين .

فإذا ادعيت ما ليس لك سلبك ما ملكك ، وإذا تحققت بوصفك وسلمت له وصفه منحك ما لم يكن عندك وآتاك ما لم يؤت أحدًا من العالمين ، فكلما نزلت بنفسك أرضًا أرضًا سما قلبك سماء سماء وقد تقدم هذا المعنى فى الخمول ، والله تعالى أعلم .

تنبيه : اعلم رحمك الله ووفقك للتسليم لأوليائه أن الحرية إذا تحققت فى الباطن لابد من رشحات تظهر على الظاهر :

* فَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِى فِيهِ يَرْشَحُ *

وصاحب الكنز لابد أن يظهر عليه السرور ، وصاحب الغنى لا يخلو من

بهجة وحبور كما قال الشاعر :

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ ٱمْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

ولذلك نجد أهل الباطن رضى الله عنهم جلهم أقوياء فى الظاهر ، فربما تصدر منهم مقالات تستخرجها القدرة منهم ، فيظن الجاهل بحالهم أن ذلك دعوى وظهور ، وليس كذلك وإنما ذلك رشحات من قوة الباطن لا قدرة لهم على إمساكها ؟ منها ما يكون تحدثًا بالنعم ، ومنها ما يكون نصحًا للعباد ، ليعرفوا حالهم فينتفعوا بهم فى طريق الإرشاد ، ومن هذا الأمر رفضهم كثير من أهل الظاهر ، والمتعمقون فى العبادة أو المتجمدون على ظاهر الشريعة أو من لم تطل صحبته معهم فى الطريقة وإن كان كاملا .

ومن ذلك ما وقع للشيخ زروق رضى الله عنه مع أبى المواهب التونسى رضى الله عنه حين ظهرت عليه آثار القوة الباطنية حتى قال فيه الشيخ زروق دعواه أكبر من قدمه وليس كذلك ، فإن الشيخ أبا المواهب عظيم الشأن راسخ القدم فى العرفان ، أخذ عن أبى عثمان المغربى . وكان يقول : لبست خرقة التصوف من رسول الله صلى الله عليه وسلم وله شرح حسن على الحكم إلا أنه لم يكمل ، وله كلام رائق نظمًا ونثرًا . ومن نظمه. رضى الله عنه :

مَنْ فَاتَهُ مِنْكَ وَصْلٌ حَظُّهُ النَّدَمُ وَمَنْ تَكُنْ هَمَّهُ تَسْمُو بِهِ الهِمَمُ
وَنَاظِرٌ فى سِوَى مَعْنَاكَ حُقَّ لهُ يَقتَصُّ مِنْ جَفْنِهِ بالدَّمْعِ وَهْوَ دَمُ
والسَّمْعُ إِنْ جَالَ فِيهِ مَنْ يُحَدِّثُهُ سِوَى حَدِيثِكَ أَمْسَى وَقرَهُ الصَّمَمُ
فى كلِ جَارِحَةٍ عَيْنٌ أَرَاكَ بِهَا مِنِى وفى كلِّ عُضْوٍ بالثَّنَاءِ فَمُ
فإِنْ تَكلّمْتُ لَمْ أَنْطِقْ بِغَيرِكُمُ وكلُّ قَلْبِىَ مَشْغُوفٌ بِحُبِّكُمُ
أَخَذْتُمُ الرُّوحَ مِنِّى فى مُلَاطَفَةٍ فَلَسْتُ أَعرِفُ غَيْرًا مُذْ عَرَفْتُكُمُ
نَسِيتُ كلَّ طَرِيقٍ كُنتُ أَعْرِفُهَا إِلّا طَرِيقًا تُؤَدِّينِى لِرَبْعِكُمُ
فَمَا المَنَازِلُ لَولاً أَنْ تَحِلَّ بِهَا وَمَا الدِّيَارُ وَمَا الأَطْلَالُ والخِيَمُ
لَوْلَاكَ مَا شَاقَنِى رَبْعٌ ولا طَلَلٌ ولا سَعَتْ بِى إِلَى نحْوِ الحِمَى قَدَمُ

وأطال الشعرانى فى ترجمته فى الطبقات بما يدل على كمال خصوصيته وتمام ولايته ، وما حمل الشيخ زروقًا على مقالته تلك إلا القوة التى صدرت من أبى المواهب ، مع كونه لم تطل صحبته معه ، مع ما صدر منه فى جانب الشيخ ابن عباد رضى الله عنهم ، والله تعالى أعلم .

وهذا الأمر الذى ذكرناه من القوة التى فى العارفين لا يجهله إلا من لم يبلغ مقامهم ، وحسب من لم يبلغ مقامهم التسليم .

وسر هذه القوة التى ظهرت فى العارفين هو من جهة الروح ، وذلك أن الروح جاءت من عالم العز والقوة ، فلما ركبت فى هذا البدن حجبت وقهرت ، فأرادت الرجوع إلى أصلها فطلبته بالعز الأصلى والقوة الأصلية فمنعت منه وأتت من كوة الذل والافتقار ، وخرقت عوائد نفسها فانخرقت لها حينئذ الحجب ، فرجعت إلى أصلها ، فلما رجعت إلى أصلها اتصفت بالقوة التى كانت لها ، فأمرت أن تجعل ذلك فى باطنها ففعلت ، لكن ربما رشح شىء من ذلك على الظاهر غلبة .

خرق عوائد النفس

ولذلك ذكر الشيخ خرق العوائد إثر ذكر التحقق بالعبودية فقال :

[**كيف تخرق لك العوائد ، وأنت لم تخرق من نفسك العوائد**] .

قلت : العوائد كل ما تعودته النفس وألفته واستمرت معه حتى صعب خروجها عنه سواء كان ظلمانيًّا أو نورانيًّا ، كتتبع الفضائل وكثرة النوافل .

وهى على قسمين : عوائد ظاهرة حسية ، وعوائد باطنة معنوية .

فمثال العوائد الحسية : كثرة الأكل والشرب والنوم واللباس وخلطة الناس والدخول فى الأسباب ، وكثرة الكلام والمخاصمة والعتاب ، والاستغراق فى العبادة الحسية أو العلوم الرسمية ، وغير ذلك .

ومثال العوائد المعنوية : حب الجاه والرياسة وطلب الخصوصية ، وحب الدنيا والمدح ، وكالحسد والكبر ، والعجب والرياء ، والطمع فى الخلق ، وخوف الفقر

وهم الرزق ، والفظاظة والقسوة ، وغير ذلك مما تقدم . فمن خرق من نفسه عوائدها الحسية بالرياضات القهرية خرقت له العوائد الحسية : كالطيران فى الهواء والمشى على الماء ، ونفوذ الدعوة وغير ذلك من الكرامات الحسية ومن خرق من نفسه عوائدها المعنوية خرقت له العوائد الباطنة : كرفع حجب الغفلة وتطهير القلوب ، وكشف الحجاب وفتح الباب ، وتحقق العرفان ، والترقى إلى مقام الإحسان ، وهذا هو المعتبر عند الأكياس وهو المطلوب من سائر الناس .

وأما خرق العوائد الحسية ، فقد تكون لمن ليست لهم خصوصية : كالسحرة وأرباب الشعوذة ؛ نعم من جمع بينهما خرقت له فيهما فكيف تطلب أيها المريد أن تخرق لك عوائد نفسك حتى تدخل حضرة قدسك وأنت لم تخرق عوائد نفسك ، فما حجب النفس عن الشهود إلا ما تعودته من رؤية هذا الوجود ، فلو غابت عن رؤية هذا الوجود لتحقق لها أمر الشهود ، ولا يمكن أن تغيب عنه إلا بخرق عوائد نفسها .

وقد تقدمت حكاية الرجل الذى كان مع أبى يزيد ثلاثين سنة فلم يذق شيئًا ، فقال له لوصليت ثلاثمائة سنة لم تذق شيئا ، لأنك محجوب بنفسك ، ثم قال له : اذهب الساعة إلى الحجام واحلق رأسك ولحيتك ، وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة ، وعلق فى عنقك مخلاة واملأها جوزاً واجمع حولك صبياناً وقل بأعلى صوتك يا صبيان من يصفعنى صفعة أعطه جوزة ، وادخل السوق وأنت على هذه الحالة حتى ينظر إليك كل من عرفك ، ثم قال له فلا مطمع لأحد فيما حجب عن العامة من أسرار الغيب حتى تموت نفسه ويخرق عوائد العامة ، فحينئذ تخرق لك العوائد وتظهر لك الفوائد ا هـ .

وتقدمت أيضًا فى باب الخمول قصة الغزالى والششترى والمجذوب وغيرهم ممن خرقوا العوائد ، فخرقت لهم العوائد ، وظهرت لهم الفوائد .

وأما من بقى مع عوائد نفسه فلا يطمع أن يتمتع بحضرة قدسه .

قال الشيخ أبو المواهب رضى الله عنه : من ادعى شهود الجمال قبل تأدبه بالجلال فارفضه فإنه دجال ، ولا جلال أعظم على النفس من خرق عوائدها : كتبديل العز بالذل والغنى بالفقر ، والجاه بالخمول وغير ذلك .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزّوا ، وحكمت عليهم بالفقد حتى وُجِدوا ، فلا مطمع فى نيل العز بالله حتى يتحقق بالذل له ، ولا فى نيل الغنى به حتى يتحقق بالفقد مما سواه .

وقال أبو حمزة البغدادى رضى الله عنه : علامة الصوفى الصادق أن يفتقر بعد الغنى ويذل بعد العز ويخفى بعد الشهرة ا هـ .

فهذه الأخبار كلها تدل على أن خرق عوائد النفس شرط فى تحقيق نيل الخصوصية ، فمن ادعاها قبل أن يخرقها فهو كذاب كما تقدم عن أبى المواهب .

وكتب شيخ شيخنا رضى الله عنه إلى بعض الإخوان : أما بعد ، فإن أردتم أن تكون أعمالكم زكية وأحوالكم مرضية ، فقللوا من العوائد فإنها تمنع الفوائد ا هـ .

وسمعته رضى الله عنه يقول : من جملة العوائد تتبع الفضائل وكثرة النوافل فإنه يشتت القلب ، وإنما يلزم المريد ذكراً واحدًا وعملا واحدًا كل واحد مما يليق به أو كلام هذا معناه .

فخرق العوائد إبدالها بضدها ، كتبديل كثرة الأكل والنوم بالجوع والسهر ، وكتبديل كثرة اللباس بالتقلل منه أو ما خشن من الثياب كالمرقعات ونحوها ، وكتبديل الخلطة بالعزلة والأسباب بالزهد ، والكلام بالصمت ، وسوء الخلق بحسن الخلق ، وكتبديل حب الجاه والرياسة بالذل والخمول ، وسقوط المنزلة عند الناس وحب الدنيا بالزهد فيها والفرار منها ، وكاتصافه بالتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل .

فإذا تحقق المريد بهذه الأمور وخرقت له العوائد على ما يريد حتى يكون باسم الله عنده موافقة لكن من الله ، فيكون أمره بأمر الله :

(وَمَا ذٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ)[1] .

ولابد فى خرق العوائد الباطنية من شيخ كامل جامع بين حقيقة وشريعة يحملك بهمته ، فإذا رميت يدك فى نفسك حملتك الهمة ونصرتك القدرة فقتلتها بالمرة .

---

(١) إبراهيم : ٢٠ .

وأما إذا لم يكن لك شيخ فكلما قتلتها رجعت أكبر مما كانت ، ولا تموت النفس الحية إلا مع الأموات كما قال شيخنا رضى الله عنه ، هذا الأمر مجرب وبالله التوفيق .

وخرق العوائد الباطنية التى هى رفع الحجب وشهود المحبوب لا يكون بمجرد الطلب دون السعى فى السبب مع تحقق الأدب كما نبه عليه بقوله :

[ليس الشأن وجود الطلب ، إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب] .

قلت : قد تقدم فى أول الكتاب أن الطلب كله مدخول عند المحققين أولى الألباب ، لما يقتضيه من وجود النفس ، والوقوف مع الحس ، إذ العارف المحقق لم تبق له حاجة يطلبها ، لأنه قد حصل له الغنى الأكبر ، وفاز من مولاه بالحظ الأوفر ، وهو معرفة مولاه ، والغيبة عما سواه ، فإذا فقد من وجدك فليس الشأن وجود صورة الطلب ، وإنما الشأن أن تستغنى به عن كل مطلب ، وترزق معه حسن الأدب ، والاكتفاء بعلم الله والوقوف مع مراد الله .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : والأدب على ثلاثة أوجه : آداب فى الظاهر ، وذلك بإقامة الحقوق . وآداب فى الباطن بالإعراض عن كل مخلوق . وآداب فيهما ، وذلك بالانحياش للحق ، والدوام بين يديه على بساط الصدق ، وذلك هو جملة الأمر وتفصيله وتفريعه وتأصيله ا هـ .

فالطلب عند العارفين ليس هو بلسان المقال وإنما هو بلسان الحال وهو الاضطرار وظهور الذلة والافتقار ، كما نبه عليه بقوله :

[ما طلب لك شىء مثل الاضطرار ، ولا أسرع بالمواهب مثل الذلة والافتقار] .

قلت : إنما كان طلب العارفين بلسان الحال دون المقال ، لما حققهم به من وجود معرفته حتى شهدوا منته فى محنته ، ونعمته فى نقمته ، فإذا تجلى لهم بالقوة والجلال ، تلقوه بالضعف والإذلال ، فحينئذ يتجلى لهم باسمه الجميل ، فيمنحهم كل جميل ، وإذا تجلى لهم باسمه العزيز أو القهار ، تلقوه بالذلة والافتقار ، فتتوارد عليهم المواهب الغزار .

فإذا أردت أيها العارف أن تطلب من مولاك شيئاً جلباً أو دفعًا فعليك

بالاضطرار ، والاضطرار : هو أن يكون كالغريق فى البحر ، أو الضال فى التيه القفر ، ولا يرى لغياثه إلا مولاه ، ولا يرجو لنجاته من هلكته أحدًا سواه ، فما طلب لك من مولاك شيء مثل اضطرارك إليه ، والوقوف بين يديه ، متحلياً بحلية العبيد ، هنالك تنال كل ما تريد ، كما قال الشاعر :

أَدَبُ العَبِيدِ تَذَلُّلٌ وَالْعَبْدُ لَا يَدَعُ الْأَدَبْ
فَإِذَا تَكَامَلَ ذُلُّهُ نَالَ المَوَدَّةَ وَاقْتَرَبْ

وقال آخر :

وَمَا رُمْتُ الدُّخُولَ عَلَيْهِ حَتَّى حَلَلْتُ مَحَلَّةَ الْعَبْدِ الذَّلِيلِ
وَأَغْضَيْتُ الجُفُونَ عَلَى قَذَاهَا وَصُنْتُ النَّفْسَ عَنْ قَالٍ وَقِيلِ

إذا أردت ورود المواهب عليك وهى العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، فلا شيء أسرع لك بها مثل الذلة والافتقار ، بين يدى الحليم الغفار ، يكون ذلك قلباً وقالباً ، فينبغى لك حينئذ أن تستعد لكسب المواهب ، ونيل المراتب ، قال تعالى :(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ)[1] وقال تعالى : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعَاهُ)[2] وقال أيضاً : (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ)[3] .

وقال صلى الله عليه وسلم :« إِنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَإِنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ ، وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » .

وقال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : ما أظهر عبد فاقة إلى الله فى شيء إلا قال الله تعالى للملائكة : لولا أنه لا يحتمل كلامى لأجبته لبيك لبيك ا هـ .

---

(١) التوبة : ٦٠ . (٢) النمل : ٦٢ . (٣) آل عمران : ١٢٣ .

الوصول إلى الله

فإذا طلبت الدخول مع الأحباب ، فقف ذليلا حقيراً بالباب ، حتى يرفع بينك وبينهم الحجاب ، من دون حيلة منك ولا أسباب ، وإنما هو فضل من الكريم الوهاب كما أشار إلى ذلك بقوله :

[لو كنت لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ، ومحو دعاويك لم تصل إليه أبداً ، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه ستر وصفك بوصفه وغطَّى نعتك بنعته ، فوصلك إليه بما منه إليك لا بما منك إليه] .

قلت : الوصول إلى الله هو العلم به وبإحاطته ، بحيث يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل ، وهذا لا يكون إلا بعد موت النفوس ، وحط الرءوس ، وبذل الأرواح ، وبيع الأشباح ، لقوله تعالى :

(إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ)[1] .

أى جنة المعارف لأهل الجهاد الأكبر ، وجنة الزخارف لأهل الجهاد الأصغر ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : « مُوتُوا قَبْلَ أَن تَمُوتُوا » .

ذكره النقشبندى فى شرح الهائية حديثًا .

وقال فى لطائف المنن : لا يدخل على الله إلا من بابين : أحدهما الموت الأكبر ، وهو الموت الحسى . والثانى الموت الذى تعنيه هذه الطائفة ، يعنى موت النفوس . وقال الششترى رضى الله عنه :

إِنْ تُرِدْ وَصْلَنَا فَمَوْتُك شَرْطٌ لَنْ يَنَالَ الوِصَالَ مَنْ فِيهِ فَضْلَهْ

وقال أيضاً :

لَيْسَ يُدْرِك وِصَالِي كلُّ مَنْ فِيهِ بُقْيَا

---

(١) التوبة : ١١١ .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : لا يصل الولى إلى الله تعالى ومعه شهوة من شهواته ، أو تدبير من تدبيراته واختيار من اختياراته ا هـ .

وهذه التصفية ليست هى من فعل العبد وكسبه ، وإنما هى بسابق عناية ربه ، فلو كان العبد لا يصل إلى الله تعالى إلا بعد فناء مساويه ومحو دعاويه من حيث هو هو لم يصل أبداً ، لكن الحق تعالى من كرمه وجوده إذا أراد أن يطوى عنه مسافة البعد ، أظهر له من أنوار قدسه ونعوت وصفه ما يغيب به العبد عن شهود نفسه ، فحينئذ تفنى المساوى وتمتحق الدعاوى ، فيحصل الوصول ويبلغ المأمول ، بما منَّ الله إلى العبد من سابق العناية والوداد ، لا بما منَّ العبد إلى الله من الكد والاجتهاد .

وإن شئت قلت : فناء المساوى هو التطهير من أوصاف البشرية ، وهى الأخلاق المذمومة من حيث هى ، ومحو الدعاوى، وهو التبرى من الحول والقوة ، بحيث لا يرى لنفسه فعلا ولا تركاً ولا نقصاً ولا كمالا ، وإنما هى غرض لسهام الأقدار تجرى عليها أحكام الواحد القهار ، فتحقيق هذين الأمرين على الكمال ، مع وجود النفس كاد أن يكون من المحال ، لكن الحق تعالى لكرمه وجوده إذا رأى منك صدق الطلب وأراد أن يوصلك إليه وصلك إلى ولىّ من أوليائه ، وأطلعك على خصوصيته واصطفائه فلزمت الأدب معه ؛ فما زال يسير بك حتى قال لك ها أنت وربك ، فحينئذ يستر الحق تعالى وصفك الذى هو وصف العبودية بوصفه الذى هو وصف الحرية ، فتتحد أوصاف البشرية ، بظهور أوصاف الروحانية ، ويغطى أيضاً نعتك الذى هو الحدوث بنعته الذى هو القدم ، أو غطى نعتك الذى هو العدم بنعته الذى هو الوجود .

وقال الشيخ زروق : سَتَرَ فقرَك بغناه ، وذلّك بعزه ، وعجزكَ بقدرته ، وضعفك بقوته ، ويصرفك عن شهود ذلك منك وإليك بشهود ما منه إليه ا هـ .

قلت : وهو لازم لما فسرته به من وصف العبودية ونعت الحرية ، فوصلك حينئذ بما منه عليك من الإحسان ، واللطف والامتنان ، لا بما منك إليه من المجاهدة والطاعة والإذعان . ومثال النفس كالفحمة كلما غسلتها بالصابون زاد سوادها ، فإذا اشتعلت فيها النار ونفخ فيها الريح كستها النار ولم يبق للون

الفحمة فيها أثر ، فكذلك أوصاف البشرية إذا كساها نور الروحانية تغطت ظلمة البشرية ، ولم يبق لها أثر فتنقلب البشرية فى صفة روحانية ، وفى ذلك يقول الششترى فى بعض أزجاله :

فمتَى مَـا يَبِينُ لِى زَالَـتِ البَـشَـرِيّـا
وَتَحَـوَّلَـت غَـيْـرِى فى صَفَـا رُوحَـانِيّـا

والنار التى تحرق البشرية : هى مخالفة الهوى ، وتحمل النفس ما يثقل عليها ، كالذل والفقر ونحوهما مع دوام ذكر الاسم المفرد ، فكلما فنى فيه ذابت بشريته وقويت روحانيته حتى تستولى على بشريته ، فحينئذ يكون الحكم لها فتغيب فى نور مذكورها ، وتغرق فى شهود عظمة محبوبها ، فحينئذ يحصل الوصال ، ويتحقق الفناء فى ذى العظمة والجلال .

وللششترى أيضاً رضى الله عنه :«فالتفت الخطاب ، وسمعت منى ، كلى عن كلى غاب وأنا عنى مغنى ، وارتفع لى الحجاب ، شهدت أنى ما بقى لى أثر ، غبت عن أثرى ، لم أجد من حضر ، فى الحقيقة غيرى ، وبالله التوفيق ، هذا آخر الباب الثالث عشر .

وحاصلها : أمرك بالتعلق بأوصاف الربوبية ، والتحقق بأوصاف العبودية ، وعدم مشاركتك له فى وصف الحرية ، وما تعودت به من ذلك فأخرق لها تلك العوائد هنالك حتى تتهذب وتتأدب ، وتكتفى بعلم الحال عن وجود الطلب ، فيكون طلبها شاهد حالها من الذلة والانكسار ، وظهور الفاقة والاضطرار ، فحينئذ تترادف عليها المواهب ، وتنال بذلك غاية المطالب ، ومنتهى الرغائب ، وهو الوصول إلى حضرة القدس ومحل الأنس ، من غير حيلة ولا اكتساب ، وإنما هو منة من الكريم الوهاب ، منّ عليها بالوصول ، وتفضل عليها بالقبول ، كما أشار إلى ذلك فى أول الباب الرابع عشر فقال رضى الله عنه :